

قراءات في الحجاج وإشكالاته

الدكتورة: هـمـو الحـاج ذهـبية

جامعة تيزي وزو- الجزائر

لقد ظهر مصطلح الحجاج في السنوات الأخيرة، واكتسب منزلة هامة في الدراسات اللغوية والأدبية، ويعود الفضل في ذلك إلى النظرية التداولية، التي أعطته مقاما محمودا ضمن مباحثها. لقد أفاض الباحثون من مختلف مشاربهم في تحديده من جوانب مختلفة: بلاغية، ومنطقية وفلسفية ولغوية... وقد ركزت هذه الدراسات على تحديده كمصطلح بالخوض في بواعثه وتقنياته، وضبط مراتبه ضمن الاستعمالات اللغوية المتعددة. لقد أثرنا في هذا البحث العودة إلى بعض مفاهيمه وعلاقاته بالفنون الأدبية الأخرى، مركّزين على قراءات حدائثة بالخصوص، نظرا للأثر الذي تركته الدراسات الغربية في كيفية تلقي هذا المصطلح ومعالجته في الخطابات العربية التراثية والمعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الخطاب، البراغماتية، التداولية.

Abstract

The term 'argumentation' has emerged in recent years, and has gained an important place in linguistic and literary studies, thanks to the pragmatic theory, which gave it a good position within its investigations. The researchers, from different convictions, have expanded in defining it from its different facets: rhetorical, logical, philosophical and linguistic... These studies have focused on defining it as a term by wading/delving into its motives and techniques, and setting its ranks within the multiple linguistic uses. In this research, we have chosen to return to some of its concepts and relations with other literary arts, focusing on modernistic readings in particular. In view of the impact of Western studies on how to receive this term and its treatments in traditional and contemporary Arabic discourses.

Keywords : argumentation, pragmatic theory, discourses

لقد اكتسب الحجاج تداولاً كبيراً في الآونة الأخيرة، وحظي باهتمام كبير عند الباحثين، وكان المنعرج الذي أبرز أهميته في الخطابات بمختلف أنواعها متمثلاً في البلاغة الجديدة، وبفضل جهود برلمان وتيتيكا، أصبحنا نتحدث عن الخطابات الحجاجية بمختلف الأدوات الإجرائية الممكنة، من فلسفية، وبلاغية ولغوية.

1- الحجج عند بيرلمان وتيتيكا: إنَّ أهمَّ غاية يرمي إليها "مصنّف في الحجج" الذي ظهر سنة 1958، في نظر عبد الله صولة هي إخراج الحجج من دائرة الخطابة والجدل، فقد عمل كلّ من بيرلمان وتيتيكا Ch.Perelman et L.O.Tyteca على تحرير الحجج مما كان عليه في الخطابة الأرسطية باعتباره مغالطة ومناورة وتلاعبا بالعواطف والعقول، وعملا من ناحية ثانية على تخليص الحجج من صرامة الاستدلال، الذي يجعل المخاطب في وضع خضوع واستلاب. فكان الحجج عندهما معقولة وحرية، وحواراً من أجل حصول وفاق بين الأطراف المتحاور، وهو عكس العنف بكل مظاهره¹. إنَّ مؤلّف مصنّف الحجج ينطوي على ثلاثة أقسام: الأول والثاني ورد فيهما "ما به يكون الحجج حواراً من أجل الوصول إلى الاقتناع دون حمل على الاقتناع"²، وذلك من خلال الحديث عن أطر الحجج من جهة، وعن منطلقاته من جهة أخرى، أمّا القسم الثالث من الكتاب فتكمن أهميته في عرض المؤلفين للتقنيات الحججية بالمفهوم الذي حدّدها. ومن هنا سنركّز على مسائل ثلاث حدّدت مفهوم الحجج عندهما، هي: مفهوم الحجج، منطلقات الحجج، وأخيراً تقنيات الحجج.

يعرّف المؤلفان الحجج بقولهما: "موضوع الحجج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"³. وقد علّق على هذا التعريف جميل عبد المجيد بقوله: "يسعى كلّ واحد منهما إلى نشر ما لديه من فكرة أو معتقد، أو بضاعة في سياق من الحرية، لا باستخدام حدّ السيف، فلم يعد أمام هذه التيارات إلّا استخدام الخطاب، خطاب التأثير والاستمالة. وشاع هذا الخطاب وازدهر إلى حدّ يسمح كما يقول بيرلمان بأن نطلق على القرن العشرين قرن الترويج والدعاية"⁴.

كما حدّد غاية الحجج في قولهما: "غاية كلّ حجج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة الإذعان، فأنجع الحجج ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب"⁵، ويقصد بالعمل المطلوب إمّا إنجازه أو تركه والإمساك عنه. وفي هذا الصدد يتساءل كلّ باحث عن كيفية حصول الإقناع والحمل على الإذعان، الذي هو غاية الحجج عند بيرلمان، يذهب حمّادي صمود إلى القول أنّ ما يمكن فهمه من كلام المؤلفين في كتابهما "مصنّف في الحجج" أنّ تحقيق الإقناع "conviction" الذي هو غاية الحجج، يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال "la démonstration" والإقناع "persuasion".

إنّ الاستدلال مجاله المنطق، لأنّه يقتضي أن تكون كافّة عناصره غير قائمة على التّعبد، فهي أحادية المعنى، بحيث تكون هذه العناصر ممّا يفهمه النّاس جميعاً دون اختلاف

بينهم، والاستدلال غير مرتبط بمقام مخصوص، فهو عامّ، على عكس الحجاج الذي يكون فيه التّعّدّد والاختلاف والخصوصيّة والارتباط بمقام معيّن. فذهب بيرلمان إلى القول أنّ الحجاج "مجاله الخطابية"⁶ على غرار الاستدلال الذي مجاله المنطق، كما أسلفنا الذّكر. والحقيقة في الاستدلال ليست مضمونة ولا هي موضوعيّة، أمّا الحقيقة في الحجاج، حسب بيرلمان، فنسبيّة ذاتيّة، وذاتية الحجاج ليست منحصرة في شخص واحد، فهي إلى غير حدّ، ومرتبطة أشدّ الارتباط بالمقام، وتكون موجّهة إلى المتلقّي الذي يمكن أن يكون جمهورا أو شخصين اثنين وحتى شخصا واحدا متمثّلا في شخص المتكلّم وحده، فهو الخصم والحكم الذي يحاجّ نفسه. وبهذا يكون الحجاج ليس موضوعيّاً محضاً، كما أنّه ليس ذاتيّاً محضاً بمعنى أنّه لا يخاطب الخيال والعاطفة، كما أنّه لا يلغي العقل وحرّيّة الاختيار. فيكون في هذه الحالة إقناع، إذ من مقوّمات الحجاج عند بيرلمان وتتيكا حرّيّة الاختيار على أساس عقلي. فالإدعان يكون بواسطة الاقتناع، والفرق بين الاقتناع والإقناع كما يرى شانييه: "أنّ المرء في حالة الاقتناع يكون قد أقنع نفسه بواسطة أفكاره الخاصّة، أمّا في حالة الإقناع فإنّ الغير هم الذين يقنعونه دائماً"⁷. لقد قسّم بيرلمان وتيتيكا الحجاج إلى قسمين، حسب نوع الجمهور⁸، هما:

- 1- الحجاج الإقناعي: الذي يهدف إلى إقناع جمهور معيّن وخاصّ، كجمهور الحملات الانتخابية، أو جمهور المحكمة أثناء المرافعة، ويعتمد على البرهان والاستدلال.
- 2- الحجاج الاقتناعي: يستهدف كلّ عاقل، فهو عامّ، وبما أنّ المؤلّفين يأخذان بكافّة أنواع الجمهور بما في ذلك المخاطب الفرد، والشّخص الذي يخاطب نفسه، بالإضافة إلى الجمهور الخاصّ، الذي يعتبرانه نوعاً واحداً هو الجمهور العام، فجعلوا الاقتناع، وهو عقلي دائماً، أساس الإدعان وبالتالي أساس الحجاج. وأنّ الاقتناع ذاتي وموجّه إلى جمهور معيّن فهو ضيق لذلك لا يؤخذ به في الحجاج.

يقول المؤلّفان في خاتمة كتابهما، واضعين الحجاج من حيث هو اقتناع بين استدلال من ناحية وإقناع من ناحية أخرى: "إنّ الحجاج غير الملزم وغير الاعتباري هو وحده القادر بأن يحقق الحرّيّة الإنسانيّة من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل. فأن تكون الحرّيّة تسليماً اضطراريّاً بنظام طبيعي معطى سلفاً معناه انعدام كل إمكان للاختيار. فإذا لم تكن ممارسة الحرّيّة مبنيّة على العقل فإن كل اختيار يكون ضرباً من الخور ويستحيل إلى حكم اعتباري يسبح في فراغ فكري"⁹. وهذا العمل الذي قدّمه الباحثان، قد أعاد صياغة البلاغة والحجاج عمّا كان سائداً، خاصة المفاهيم الأرسطيّة، التي أعاد النظر فيها "بإعادة تأسيس البرهان أو المحاجة

قراءات في الحجج وإشكالاته

مجلة فصل الخطاب

الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع، كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وإمداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر¹⁰.

فالحجاج إذا يلعب دورا ذا بال في حياة الفرد والمجتمع، ويمكن القول إنَّ الإنسان يحيا ليحاجج، "فالحجاج عبارة عن تصوّر معيّن لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكلّ من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب"¹¹. بالإضافة إلى هذين العنصرين الأساسيين لقيام الحجاج (المحاجج والمقام)، لا يجب أن نغفل عن دور المتلقي، الذي يعتبر المستهدف في العملية الحجاجية كلّها، فهو المعني به حيث يعدّ السبب الفعلي الذي لولاه لما كان الحجاج أصلا¹²، إذ يشكّل طرفا محوريا في العملية التحوارية والتواصلية.

2- الحجاج والخطابة: إنَّ الحجاج عند بيرلمان غير الخطابة الأرسطية¹³، فهما مختلفان

من جهتين:

1-نوع الجمهور: يتمثّل جمهور الخطابة في الجماعة المجتمعة في السّاحة تستمع إلى الخطيب، أمّا جمهور الحجاج، حسب مصنّف الحجاج، يمكن أن يكون عاما، حاضرا أو غائبا، كما يمكن أن يكون الحجاج بين شخصين وبين المرء ونفسه.

2-نوع الخطاب: إذا كان الخطاب في الخطابة الأرسطية ينحصر في ما هو شفوي، فإنّ الخطاب الحجاجي، عند بيرلمان، يمكن أن يكون منطوقا، كما يمكن أن يكون مكتوبا، بل يصرّ على المكتوب ولا يكاد يأخذ أمثله إلاّ ممّا هو مكتوب.

إنّ ما قام به أرسطو هو تقسيم الخطابة إلى ثلاثة أنواع: تشاورية، واحتفالية، وقضائية. وبالانطلاق ممّا سبق من مفهوم الحجاج عند بيرلمان، يمكن القول أنّه أعاد بعث البلاغة في ثوب جديد، فقد لمّ شمل الخطابة في نظرية هي "الحجاج"، بعد أن تفرّقت الخطابة عند أرسطو، وألحق كلّ نوع منها بعلم الفلسفة والجدل والأدب.

3-التقنيات التي يقوم عليها الحجاج عند بيرلمان: تتعلّق هذه التقنيات الحجاجية بالدرجة الأولى بموضوع تلقّي الحجّة، الذي يطرح قضية المقدمات، المأخوذة على أساس أنّها مسلّمات يقبل بها الجمهور، وهذا ما يجعل الحجاج يتحقّق. إنّ "اختيار هذه المقدمات وطريقة صوغها وترتيبها في حدّ ذاتها قيمة حجاجية"¹⁴، وتستند هذه المقدمات إلى تقنيات مستمدة ممّا هو سائد في الذّهن الجماعي لدى الفرد أو الجماعة، والتي عادة ما تؤخذ من العادات والتقاليد والأعراف، الدّين... ومذكورة على التّوالي كما أشار إليها عبد الله صولة في كتابه "الحجاج وأطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج، الخطابة الجديدة":

-الوقائع: وهي ما يشترك فيها عدّة أشخاص، أي ما هو مشترك لدى جماعة بشرية معينة لها الأسس الفكرية والثقافية نفسها، ولا تكون عرضة للدحض أو الشك، وتشكل نقطة انطلاق ممكنة للنجاح.

-الحقائق: هي أنظمة أكثر تعقيدا من الوقائع، حيث تعمل على الربط بين هذه الوقائع، وأغلب الأحيان يكون مصدرها النظريات العلمية أو المفاهيم الفلسفية أو الدينية.

-الافتراضات: تحظى الافتراضات بالقبول والموافقة عليها من طرف العامة، لكن الاقتناع بها لا يكون قويا إلا إذا أتى في مسار الحجاج عناصر أخرى تقويها وتحدد الافتراضات بالقياس إلى العادي والمحتمل، وهي نسبية، تختلف من جمهور لآخر، ومن شخص لآخر.

القيم: تعتبر القيم التّواة التي يدور حولها الحجاج بكلّ ضروبه، فإنّها تمثل خاصّة لمجالات القانون والسياسة والفلسفة غذاء أساسيا، فهي التي يعول عليها في جعل السّامع يذعن لما يطرح عليه من آراء. والقيم نوعان:

-قيم مجرّدة: مثل العدل والحق.....

-قيم محسوسة: مثل الوطن والمسجد

-الهرميّات: إنّ هرميّة القيم في البنية الحجاجيّة أهمّ من القيم نفسها، فالقيم وإن كان تُسلّم بها جماهير عدّة من المستمعين، فإنّ درجة التسليم بها مختلفة من جمهور لآخر، فالجميل درجات وكذلك التّأفع. والهرميّة بعد ذلك نوعان:

-مجرّدة: مثل اعتبار العدل أفضل من التّأفع...

-ماديّة محسوسة: كاعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان، والإله أعلى درجة من الإنسان.

-المواضع أو المعاني المشتركة: وهي خاصّة بالعلوم المختلفة مثل القانون والفيزياء والسياسة، لما لهذه العلوم من علاقة بالاستدلال الجدلي، كما هو معروف لدى الإغريق.

تعتبر هذه الخصائص الستّ عند بيرلمان المنطلقات، التي يؤسس عليها المخاطب مقدّمة خطابه الحجاجي. يشترط بيرلمان في تحديده للنظرية الحجاجيّة باعتبارها مجموعة من التقنيات الخطابيّة، تجعل الدّوات تذعن بالأطروحات المقدّمة لها، أن يكون للحجاج تأثير على غيره وإقناعه بصحّة معتقدات المخاطب، وهذا يستثني الصّورة البلاغيّة أي المحسّنات اللفظيّة والبدعيّة من دائرة الحجاج عند بيرلمان، إذ يعتبر دورها ضعيفا في العمليّة الحجاجيّة. وهذه التقنيات التي عرضناها تدور حول محورين هامّين: محور الخطاب ذاته عن طريق البنى

الحجاجية التي تكونه، ومحور أثر الخطاب على المتلقي انطلاقاً من قصيدة صاحب الخطاب. في المحور الأول تتم دراسة الحجج وتصنيفه، وفي المحور الثاني تدرس الوضعية التبليغية التي تشكل فعل الحجج. ويؤكد بيرلمان في هذا السياق على عدم عزل أي حلقة من الحجج عن السياق، الذي تندرج ضمنه، انطلاقاً من ذلك يمكن تصنيف التقنيات الحجاجية، من منظور بيرلمان، إلى أربع تقنيات خطابية، هي كالآتي¹⁵:

-الحجج شبه المنطقية: تعتمد هذه الحجج على البنى المنطقية، وهي مبنية على شكل حجج منطقية ورياضية، إلا أنها تستدعي جهداً تأويلياً. ويقدم بيرلمان في هذا الصدد المثال الأكثر دلالة على الحجة شبه المنطقية: "صديق صديقي هو صديقي"، وهو بناء شبه رياضي، يستند إلى البرهان والاستدلال المنطقي. وهذا التقارب بين الحجج والبرهان هو ما يعطي الحجة شبه المنطقية قوتها الإقناعية. يبقى هذا النمط الحجاجي يعتمد على البنى المنطقية مثل التناقض، والتماثل التام أو الجزئي، والتعدية. كما تعتمد هذه الحجج العلاقات الرياضية نحو علاقة الجزء بالكل وعلاقة الأصغر بالكبر...، وتندرج ضمن الحجج شبه المنطقية كل من:

-انعدام الملائمة/التناقض وعدم الاتفاق: يقصد به وجود قضيتين مستمدتين من مشكلتين إحداهما نقيض الأخرى ونفي لها. مثال: عمر حاضر، وليس حاضراً. ولكي يتم الوصل بين القضيتين يجب ربط الملفوظين بالواقع والإحالة إلى الظروف والسياس لاختيار إحدى الأطروحتين وإقصاء الأخرى، فالتناقض يحدث داخل النظام الواحد أما التعارض فيحدث في علاقة الملفوظ بالسياق أو المقام.

مثال: جرى حوار بين مجموعة من الأشخاص، تبين من خلال الحوار، الذي دار بينهما التعارض مع الواقع.

قال الأول: ترى لماذا يكون السقوط من ظهر الحمار أكثر إيلافاً للمرء من سقوطه من ظهر الجمل، رغم أن الجمل أعلى ظهراً وأطول من الحمار؟

قال الثاني (معللاً ذلك): ربما لكون الساقط من ظهر الجمل، هو الساقط من علٍ، يجد الفرصة لتهيئاً على أي شكل يسقط، في حين أن الساقط من ظهر الحمار، وهو الساقط من قرب، لا يجد تلك الفرصة.

قال له الثالث: رويدك! فقياساً على كلامك هذا، يكون الساقط من أعلى بناية أكثر أملاً في النجاة من الواثب في حوض السباحة.

إنّ التعارض بين القاعدتين بالقياس إلى الواقع والمقام، الذي وقع فيه يكون مثار الاستهزاء والسخافة "Ridicule". وحسب بيرلمان أنّ سلاح الحجج هو إمالة اللّام للوصول إلى

السّخرية والاستهزاء، لأنّ مجاله المقال في علاقته بالمقام. وقد عرّف السّخرية بقوله: "هو يدفعنا على أن نضحك منه، ذلك أنّ القول موضوعه الاستهزاء، فهو ذلك القول، الذي يتعارض بدون أي مبرّر مع الرّأي السّائد" (قول الرّجل الثّاني: نجا لكون الجمل له قامة طويلة، قول مضحك).

- التماثل والحدّ: التّماثل التّام مداره على التعريف، من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرّف والمعرّف، وليس المعرّف تمام المعرّف على الحقيقة. لهذا سمي الحجاج من هذا القبيل حجاجا شبه منطقيّ، فقولنا على سبيل المثال في تعريف الرّجل أو الأب: الرّجل رجل والأب أب، هو تحصيل حاصل، لا تجد فيه معنى المعرّف وهو رجل وأب، هو نفسه معنى المعرّف وهو الرّجل والأب، هذا قيل عن مثل هذه القضايا، أنّ أحد لفظها ورد على الحقيقة والآخر على وجه المجاز.

حجج التعدية: إنّ ضروب العلاقات، التي تقوم على خاصيّة التعدية هي علاقات التّساوي والتّفوّق "Supériorité" والتّضمّن "Inclusion" والأمثلة على ذلك الحكمة التي تقول: عدوّ عدوّي صديقي، حيث يدعم الطّابع شبه المنطقي في هذه الحكمة، ويمكن أن يستنتج منها: صديق عدوّي عدوّي.

- الحجج القائمة على قاعدة العقل وعلى العلاقة التبادلية: وهي ما يعتمد فيها البنى المنطقيّة: تتمثّل هذه الحجج في معالجة وضعيتين إحداها سبيل من الأخرى، معالجة واحدة وهو ما يعني أنّ تلكما الوضعيتين متماثلتان، وإن كانت بطريقة غير مباشرة، وتماثلها ضروري لتطبيق قاعدة العدل، تلك القاعدة التي تقتضي معاملة واحدة لوضعيات داخلية في مقولة واحدة. مثال: "لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه". في هذا المثال وضعيتان إحداها عكس الأخرى، وبالتالي دعوة إلى تطبيق قاعدة العدل على مثال هاتين الوضعيتين المتناظرتين.

إنّ هذه الحجج التي ذكرناها ترتكز على طريقتين لبنائها كما أشار إلى ذلك بيرلمان: هما الوصل والفصل.

- طرائق الوصل: هي التي تقرّب بين العناصر المتباينة، وتتيح إقامة ضرب من الالتحام والتّضامن بينها لغاية إبرازها في هيكل منطقي، أو لغاية تقويم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقويما إيجابيا أو سلبيا. وهذه التّقنيات تسمح بتقريب العناصر المتميّزة، قد يكون الوصل موجودا في الواقع، أو أنّه يستحدث لغرض ما، مثلما هو الحال في القياس.

- أمّا طرائق الفصل: فهي التّقنيات المستخدمة لغرض إحداث القطيعة بين عناصر تشكّل عادة كلّا لا يتجزّأ، أو على الأقلّ كلّا متضامنة أجزاؤه في نطاق منظومة فكريّة واحدة.

فوق هذه الطرائق، يحدث فصل داخل المفهوم الواحد، بملاحظة عدم الانسجام بين العناصر المكوّنة له.

وهناك حجج أخرى أشار إليها بيرلمان، وتطرّق إليها عبد الله صولة¹⁶، وهي كالآتي:

-الحجج المؤسّسة على بنية الواقع: إذا كانت الحجج شبه المنطقية، التي تستمدّ طاقتها الاقناعية والحجاجية لمشابهتها للطرائق المنطقية، غير ملزمة، وعدم الإلزام هذا هو دعامة أشكال البلاغة، فإن الحجج المستندة إلى بنية الواقع تقوم على ترابطات قابلة للملاحظة كالشاهد والمثل، والتّمثيل، والاستعارة والكناية، وذلك على غرار الحجج المبينة للواقع، التي تسمح بالربط بين وقائع متعايشة أو متتابعة في حدود ثلاث تلازمات، التلازم المكاني، التلازم الزمني.

وهذه الحجج التي تعتمد بنى الواقع لا تصف بقدر ما تعرّض الآراء المتعلقة بالواقع، إذ يمكن لهذه الآراء أن تكون وقائع أو حقائق أو افتراضات، ومن ضروب الاتصال بين هذه الآراء أحكام الوصل التتابعي، الذي يكون بين ظاهرة ما وبين نتائجها أو مسبباتها، والوصل التتابعي الذي يكون بين ظاهرة ما وبين نتائجها أو مسبباتها، والوصل التّواجدي الذي يكون بين شخص وبين أعماله، وهذا ما أدرجه بيرلمان في الاتصال المؤسّس لبنية الواقع.

مثال: في هذا الطريق تلاميذ كثر، إذن هناك مدرسة قريبة (تلازم مكاني).

هؤلاء المتدينون يلازمون المساجد كثيرا، إذن هم مؤمنون بالدعوة المحمدية (تلازم رمزي).

ويندرج ضمن الحجج بالوصل المبني على الواقع:

-المثال: يؤتى بالمثال في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقدّمات، أو في حالات وجود خلاف حول قاعدة ما، فيؤتى بالمثال لدعمها.

-الاستشهاد: لأن كانت الغاية من المثال هي تأسيس القاعدة وتكريسها، فإن الاستشهاد من شأنه تقوية درجة التصديق بقاعدة ما معلومة، وذلك بتقديم حالات خاصة بوضع القول ذي الطابع العام.

-التّمثيل: تظهر القيمة الحجاجية في القياس باعتباره أداة للبرهنة، وحين ينظر إليه على أنّه تماثل قائم بين البنى، وصيغة هذا التّمائل العامة هي أنّ العنصر "أ" يمثّل بالنسبة للعنصر "ب" ما يمثّله العنصر "ج" إلى العنصر "د".

-الاستعارة: يرى بيرلمان في الصّور البلاغية وخاصة الاستعارة رؤية مغايرة لما كان سائدا في الدّراسات البلاغية، فهي بالنسبة له حجة وليست صورة مجازية، ومبينة على أساس تمثيل بين

الموضوع والحامل، فالاستعارة هي حصيلة تفاعل لا نتيجة استبدال، وبالتالي لا يمكن تحليل الاستعارة إلا حجابيًا¹⁷.

أما التقنية الأخيرة من تقنيات بيرلمان الحجابية هي الفصل بين المفاهيم ويقصد به كسر وحدة المفهوم بالفصل بين عناصره المتضامنة على زوج ظاهر/الحقيقة، ويمثل الظاهر الحد الأول والحقيقة الحد الثاني¹⁸. يمكن أن نلخص هذا المبحث وما جاء به بيرلمان في نظريته الحجابية في خمس نقاط، هي كالآتي:

- 1- الحجاج يتوجه إلى المستمع.
 - 2- يعبر عنه بلغة طبيعية.
 - 3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
 - 4- لا تفتقر مقدماته إلى طرح منطقي.
 - 5- ليست نتائجه ملزمة، فهو يؤكد على حرية الاختيار لدى الإنسان وأن الحقيقة نسبية.
- يمكن القول إن الخطاب ليس دائما من طبيعة حجابية بالضرورة، فقد تكون كل نهاية خطاب ما ذاتية، دون أن تهدف إلى إقناع أو تأثير في المتلقي، وبالتالي هدف الخطاب ليس دائما هدفا حجابيًا، وحتى إن جاءت بعض التعابير حجابية بشكل عرضي، لا يكون هدفها حجة أو استدلالا على موقف أو دفاعا عن طرح ما، وهذا ما يؤكد بلانتين في قوله: "من الشرع الاعتقاد أن الخطاب يكون لغاية حجابية فقط، فهناك الكثير من الأقوال نستعملها في شكل عمليات غير حجابية"¹⁹، أما طه عبد الرحمن فهو يميز بين الخطاب الحجابي والخطابات الأخرى، بكونه خطابا مبنيا وموجها وهادفا، مبنيا بناء استدلاليا يتم فيه اللجوء إلى الحجة والاستدلال والعقل، وموجها مسبقا بظروف تداولية تدعو إليها إكراهات قولية أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية أو سياسية، تتطلب الدفاع عن الرأي والانتصار لفكرة، وتتطلب نقاشا حجابيا يلامس الحياة الاجتماعية، بهدف تعديل فكرة أو نقل أطروحة، أو جلب اعتقاد أو دفع انتقاد. ومن الملاحظ إن خصوصية الخطاب الحجابي تكمن في كونه يخضع لمراقبة، كالمراقبة الاجتماعية، ويندرج ضمن الإطار الاجتماعي، بشق أشكاله العقائدية والأيدولوجية.

انطلاقا من هنا، للتفريق بين الخطاب الحجابي والخطابات الأخرى ينبغي العودة إلى طبيعته، التي تميزه عن باقي الخطابات الأخرى. ومنها البناء والدينامية، إذ لا يوجد حجاج جاهز أو معطى منذ البداية، بل هو عملية يتم بناؤها تدريجيا، وتتطلب تكييفا مستمرا مع عناصرها إلى غاية إتمام الحجاج في الخطاب الأدبي، فعملية الحجاج تنطلق من أسس وقواعد لغوية وعلاقتها بالإنسان والعالم عبر التقنيات، التي تبلور تلك الأفكار وتلك العلاقات، المتعلقة بمنطق

الحياة بمختلف مجالاتها وقطاعاتها أو بمنطق اللغة أو بمنطق العقل. وهذا ما يجعل فعالية الخطاب الحجاجي تأتي من طريقة بنائه وتفاعل عناصره ودينامية مكوناته، فالالاقتصاد في الأدلة الحجاجية يكون له دور مهم في عملية الإقناع. ولهذا ينبغي التركيز على البناء في العملية الحجاجية.

ونجد التفاعل، الذي يجعل الحجاج ينسج على مبدأين أساسيين هما: مبدأ الادعاء والاعتراض. هذان المبدآن يؤديان إلى اختلاف في الرأي، ويدفعان للدخول في ممارسة الدفاع أو الاختصار للدعوى، وهو ما يؤدي إلى تحقيق نوع من التزاوج، حيث يقول طه عبد الرحمن: "والمقصود بتزاوج المتكلم هو الانشقاق الاعتباري لذات المتكلم إلى شقين أو أقل، أو بالأحرى إلى ذاتين إحداهما ظاهرة تستقل بمبادرة الادعاء... والذات الثانية باطنة تشترك مع ذات المستمع في ممارسة الاعتراض، لأن المتكلم قد يتعاطى، -ولو ذهنيا على الأقل- تصور مواطن النقد في الدعوى وتقدير مختلف الأسئلة التي يجوز أن يوجهها المستمع إليها...".²⁰ وقد نشأ عن هذا التزاوج بين المتكلم والمخاطب ازدواج في مختلف أركان العملية الحجاجية، وهي حسب طه عبد الرحمن²¹:

أ-الازدواج في القصد: يتخذ هذا الازدواج في القصد شكلين مختلفين: "تقاصد داخلي" و"تقاصد خارجي". أما الأول فيتجلى في كون المتكلم يقصد بكلامه المستمع، وفي كون المستمع يقصد باستماعه المتكلم، كما يتجلى في حصول الوعي بالقصدين عند كليهما. وأما التقاصد الداخلي، فيتجلى في جانب المتكلم في كونه قد يقصد نفسه في قصده المستمع، كما أنه قد يقصد المستمع في قصده لنفسه.

ب-ازدواج التكلم: إذا بلغ التقاصد غايته من نفس المتكلم، فإن المتكلم قد يتكلم كما لو كان المستمع يشاركه كلامه مشاركة، بل كما لو كان المستمع هو الذي يتكلم، أو إذا جاز لنا هذا التعبير كما لو كان المتكلم يحمل لسان المستمع في فيه.

ت-ازدواج الاستماع: إذا بلغ التقاصد غايته من نفس المستمع، فإن المستمع قد يستمع كما لو كان المتكلم يشاركه استماعه مشاركة، بل كما لو كان المتكلم هو الذي يستمع، أو إذا جاز لنا هذا التعبير، كما لو كان المستمع يحمل سمع المتكلم في أذنه.

ث-ازدواج السياق: إذا كان التكلم والاستماع لا ينفك أحدهما عن الآخر، وكان كل منهما يقاسم الآخر وظيفته التواصلية، فإن إنشاء مدلول القول في عملية التكلم، وتأويل هذا المدلول في عملية الاستماع، يتطلبان معا التوسل بسياقات مزدوجة، فسياق الإنشاء يحتوي نصيبا من سياق التأويل، وسياق التأويل يحتوي نصيبا من سياق الإنشاء، وعلى هذا النصيب

المشترك يكون التفاهم. فالتفاعل تفاعل يحدث بين المتكلّم والسّامع، وهكذا تكمن أهمّيته بأن يكون التفاعل مباشراً بينهما، مع ضرورة الالتزام بطبيعة الأرضيّة المشتركة بينهما، ويعني الإمكانات الخطابية المرتبطة بسياق معيّن.

والعودة إلى اللّبس والالتباس توجي إلى الاعتقاد أنّه إذا كانت اللّغة الطّبيعيّة أصلاً لكلّ غموض دلالي، ومجالاً لكلّ انزياح لسانی فإنّ الأمر سيكون معقّداً وصعب الفهم في العمليّة الحجاجيّة، وهذا ما يجعل المجال مفتوحاً أمام مهارات المتكلّم في فنّ القول، ولإظهار كفاءاته الإبداعية لكي يصل بسهولة إلى إفهام السّامع والاستيلاء على تفكيره، حتّى يتسرّب إلى ذهنه وعواطفه بغية إقناعه والتأثير فيه، والالتباس في المجاز هو "الاستدلال بعبارة الدعوى على إشارتها وبذلك يكون جامعاً بين معنيين متقابلين هما العبارة والإشارة"²². الحجاج هنا يكون فيه نوع من الغموض ويكون فيه لبس بالنسبة للمتلقّي، ويقوم هذا الأخير بتأويل كلّ طرح. والتأويل عمليّة تقييم الخطاب الحجاجي، تقييماً سلبياً أو إيجابياً، على مستويين:

الأوّل في استقبال القول باعتباره علامة لغويّة، والثّاني يتمّ عن طريق الفهم والتأويل، فهم أوّل معنى القول، ثمّ فهم آخر لمعنى معنى القول. وهنا تدخل مجموعة من العوامل الخارجيّة لتحديد البعد التأويلي لأنّ طبيعة الحجاج لا تقوم على وصف ظاهري للقول، وإنّما تتدخل بعض العناصر الأخرى مثل الاعتقاد، حيث أنّ أهمّ الأهداف والجوانب الأساسيّة في العمليّة التّخاطبيّة هو استهداف اعتقادات الإنسان، وهو ما يشكّل رهاناً صعباً في كلّ خطاب حجاجي، علماً أنّ اعتقادات الإنسان لا تمثّل عناصر مادّيّة ملموسة، فهي ترتبط ببعض القيم الإنسانيّة كالتّبر، والتّضحية، والانتماء، فالمعتقدات بصفة عامّة هي ملتقى الأخلاق المقبولة، بمعنى لا تخضع للتّحليل العلمي، فهي تقوم على أنساق فكريّة وعلل تمزج فيها الأقوال بالأفعال والمبادئ بالمسلّمات والأقوال السيّاقية... كلّها تتفاعل لتؤسّس أعمال القيمة²³. فهذه القيم يقوم المخاطب باستغلالها من أجل إحداث الإذعان لدى المتلقّي، وتصبح أرضيّة للعمليّة التواصلية، يلعب فيها الحجاج دوراً كبيراً.

أنواع الخطاب الحجاجي: تقسّم الدّراسات الحديثة الخطاب الحجاجي إلى خطابات متنوّعة أهمّها يتمثّل في الخطاب الحجاجي البلاغي والفلسفي والتّداولي، وتختلف باختلاف أصولها وامتداداتها المعرفيّة والمنهجية، لكن ذلك لا يمنع من تداخلها في ما بينها، كما سيّتضح من خلال أنواعها.

1-الخطاب الحجاجي البلاغي: لقد فرّقت الدّراسات العربيّة القديمة بين الخطابة والبلاغة، فعُدّت "الخطابة نوعاً من القول والتّخاطب، أمّا البلاغة فهي بعد أسلوب في هذا

القول، لذلك جاز الحديث عن بلاغة الخطاب واستحال العكس²⁴. فما دام مفهوم البلاغة منحصرًا في بعدها الأسلوبي، فهي تتخطى الخطابة إلى أشكال عديدة من الكتابة كالشعر والفلسفة وغيرها، كما اشتمل على علوم ثلاثة: البيان والبديع وعلم المعاني. فعلم المعاني يستهدف البحث في كيفية تجنب الأخطاء والاستهجان في تأدية المعنى من خلال كلام معين، أما علم البيان فيعمل على البحث في كيفية تجنب أوجه الغرابة والتعقيد في الكلام، بينما ينصب علم البديع على تحسين الكلام، وإضفاء جمالية التعبير عليه. فالبلاغة بهذا المعنى طريقة متبعة في الكلام، حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب المتلقي (سامعًا أو قارئًا). وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسنات وإبانة وإظهار وإقناع. ويتضح بعد قراءة بسيطة للبلاغة العربية أنّ أقطابها وجهوا لها هدفين اثنين، هما: الوضوح (الارتجال)، والتأثير (التفع)²⁵.

إنّ حاجة الخطابة للبلاغة بهدف إقناع الجمهور والتأثير فيه، يعني بالضرورة الصور البلاغية والحجج، والحجاج من أجل الاستمالة والإبانة والوضوح، وبهذا يتجلى الحجاج البلاغي وعناصره المتوفرة في النظرية البلاغية القديمة العربية مثل الشاهد عند الجاحظ، والذي يعدّه من عناصر الحجاج لأنّه مرادف للحجة والدليل والبرهان. ومن هنا يمكن القول بأنّ كلّ خطاب تواصل، وكلّ تواصل يقوم على البلاغة، وكلّ بلاغة تقوم على الحجاج، وكلّ حجاج يقوم على البلاغة، وهكذا...

2- الخطاب الحجاجي الفلسفي: تناول الباحث "حبيب أعراب" هذا النوع من الخطابات، أو هذا النوع من الحجاج بعبارة أدقّ في ما يسمّيه بحجاج الفلسفة، فهو يرى بأنّ الحجاج بعد جوهر في الفلسفة، معرفة كانت أو تفكيرًا، إضافة إلى فعالياته الأخرى الخطابية والتداولية والبلاغية، وبذلك يستبعد خلو أي مذهب أو أي تحليل فلسفي من أساليب الحجاج وقيّمته، فالتفكير الفلسفي هو تفكير حجاجي. انطلق "حبيب أعراب" من مجموعة من التساؤلات منها²⁶: أي حجاج يتمّ إتباعه واعتماده في الفلسفة؟ وهل توجد طريقة خاصّة بالفلسفة في استعمال الحجاج؟ ثمّ يؤكّد على أنّ الممارسة الحجاجية مقصودة لذاتها، ومن ثمة فهي ليست معزولة كليًا عن الإجراءات والأبعاد الأخرى في هذا النمط من القول. نفهم من هذا أنّ الحجاج في الفلسفة، أو آلية الحجاج في الفلسفة هي جزء من الكلّ، عكس ما تمّ استخلاصه في النوع الحجاجي البلاغي، والذي عُدد بدوره إجراء وآلية في خدمة البلاغة. وكذلك في إطار الإجابة عن الطرح الذي يبحث في نوع الحجاج المتبع في الفلسفة، يشير إلى لزوم اعتبار الحجاج الفلسفي شرطًا حاسمًا له أبعاده الخاصّة، فهو خطاب للعقل ويجرّ عددا من الاستشهادات، التي تدلّ على أنّ هذا الخطاب هو خطاب الدليل والبرهان.

3-الحجاج في الشّعر: لقد شاع بين الدّارسين، من أهل الاختصاص في مجال الأدب عامّة والشّعر خاصّة، جملة من الآراء تحوّلت بحكم شيوعها إلى ضرب من المسلّمات، ومن أهمّ هذه الآراء "إنّ مسلك الشّعر غير مسلك العقل، لا يُخاطب في المتلقي غير عاطفته ولا يحرك فيه إلّا أحاسيسه بل لا يَصوّر من العالم إلّا ما يطرب، فيحصل الإمتاع ويتأكّد الإلذاذ دون أن يكون للعقل دور في حصول الإمتاع والإلذاذ"²⁷. وعلى هذا النّوع شاعت أفكار تقصي الشّعر من دائرة العقل ومستلزمات المنطق.

وعلى الرّغم من هذا نجد الشّاعر مرغما في بناء كلامه على نحو مغاير، اعتمادا على المحاكاة والتخييل، وله أن يذهب مذهب الخطيب في الاحتجاج والإقناع والحرص على التّرابط والانتظام، وعلى هذا الأساس نرى أنّ إشكال تحوّل الشّعر إلى خطاب يحلّ بيسر إذا نفذنا إلى عمق النّظريّة البلاغيّة العربيّة، وخاصّة إذا أدركنا قضيّة الدّرجات في تمييز أصناف الكلام، وإذا تأملنا في هذا النّص لحازم القرطاجيّ (ت684هـ) يتبيّن لنا بوضوح أنّ الفرق بين الشّعر والخطاب في البنية الحجاجيّة يتلاشى، حيث يقول: "وقد تعضد هذه الأشياء، باستدلالات خطابيّة محضة أو موجودة فيها شروط الشّعر والخطابة معًا، بكون المحاكاة توجد فيها مع الإقناع، وما كان بهذه الصّفة فهو أفضل موقعا في الشّعر، والصّنف الآخر أيضا قد يقع في الشّعر ولا يقدّم ذلك، لأنّ صناعة الشّعر لها أن تستعمل شيئا يسيرًا من المتخيّلات"²⁸. أي أنّ الحجاج له علاقة وطيدة بالغموض، والذي هو خاصيّة مميّزة للشّعر، لأنّ الحقيقة لا يمكن الحسم في شأنها، ويكون اللّجوء إلى التّأثير وتبرير المواقف، فوظيفة الشّعر الحجاجيّة والإقناعيّة تبدو جليّة في ما ورد عند الجاحظ في كتاب "البيان والتّبيين"، حيث يقول: "ومن قدر الشّعر وموقعه في النّفع والضّر، أنّ ليلي بنت النضر بن الحارث بن كلفة لما عارضت النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يطوف بالبيت واستوقفته، وجذبت رداءه حتّى انكشف منكبه، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها، فقال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: لو كنت سمعت هذا ما قتلته"²⁹. وفي موضع آخر يقول: "وتزوّج شيخ من الأعراب جارية من رهطه، ويطمع أن تلد له غلامًا، فولدت له جاريةً فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرّ بجانيها بعد حول، وإذا هي ترقصُ بنيّتها وهي تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظنّ في البيت الذي يلينا
غضبنا أن لا نلد البنينا تالله ما ذاك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

لما سمع الأبيات، مرّ الشّيخ نحوهما حصراً حتّى ولج الخباء، وقبّل بنيّتها، وقال: ظلّمتكما وربّ الكعبة" ومن هنا تتبيّن لنا وظيفة الشّعر الحجاجيّة، التي كانت تُعتقَد حكراً على الخطب

ومقالات الفلاسفة وعلماء الكلام، وأصبح للشعر قدرة على توجيه العقول والقلوب، باستعمال تقنيات الإقناع والتأثير.

المقام ودوره في الحجج: لعب عنصر المقام دورا في الخطاب الحججي، وكان من اهتمامات العرب منذ القديم في دراساتهم البلاغية، فأولته عناية خاصة، لدرائهم بأهميته. كما أنّ الغرب أيضا أقام له نظريات بكاملها يرصد فيها آلية اشتغاله في الخطابات، خاصة في النقد ما بعد الحداثي الذي ما يزال يبرز دور السياق، في تحقيق العملية التواصلية. لذلك عمدنا إلى تعريف هذا المصطلح وضبط مفهومه.

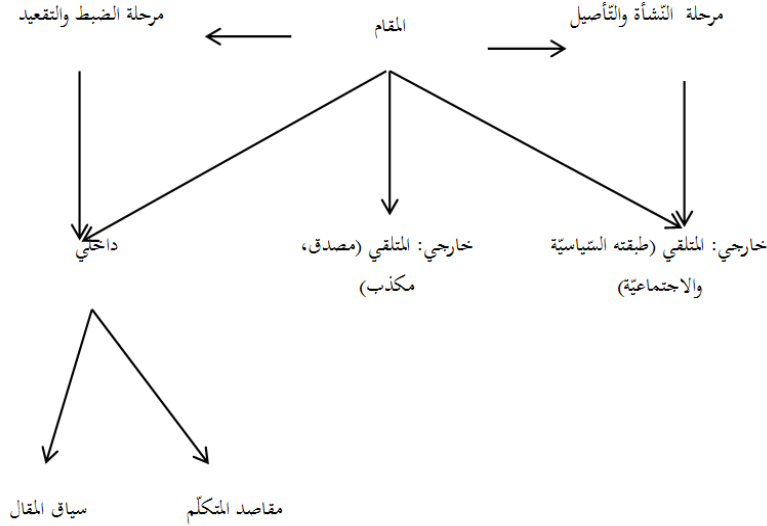
مصطلح المقام وحدوده: إنّ مصطلح المقام ليس بجديد في ساحة الدراسات الأدبية والنظريات اللسانية عامة، والبلاغة خاصة. فنشهدده عند القدامى من الدارسين العرب، الذين أدلوا بدلوهم في بلورته، فأبو الهلال العسكري يتحدث عن المقام فيقول: "فإذا كنت متكلمًا أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض ما تصلح الخطب أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر فإن ذلك هجنة"³⁰.

فإذا كان المتكلم بصدد إنشاء خطبة فغرضها الإقناع، أما إذا كان المقام شعريًا فغرضه الاستمالة والإثارة، ولكن يجب على الشاعر والخطيب أن تتوفّر لديهما وسيلة للتأثير في المتلقي وإقناعه. فالمقام إذا يعنى بالمتلقي بالدرجة الأولى لكونه العنصر الأساس، الذي يتوجّه إليه الخطاب الحججي.

كما تفتنّ السكاكي لفكرة المقام، في كتابه "مفتاح العلوم"، إذ يقول: "...ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنية يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الهزل (...). وكذا مقام الكلام الذكيّ يغير مقام الكلام مع الغي، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"³¹. وضّح السكاكي بشكل تام دور المقام في العملية التواصلية الحجاجية، فلكلّ أشكال استعمال اللغة مقام يناسبها، ومقتضى يجب أن ترد فيه، لترسم ملامح الخطاب الحججي.

أما الباحثون العرب المحدثون الذين تحدّثوا عن هذا المصطلح (المقام) من وجهة تداولية، فهم كثير، فاخترنا صلاح فضل، الذي وشج بين مصطلح المقام بالسياق في التداولية، معللاً ذلك بقوله إن التداولية: "تستخدم مفهوما تجريدياً يدلّ على الموقف التواصلية هو السياق. فالتداولية إذا تعنى بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النصّ والسياق"³²، ممّا يعني أن مصطلح السياق في

التداولية يهتمّ بالعلاقة بين النص والظروف التواصلية المرتبطة بالموقف التواصل. وهذه الخطاطة توضّح المسار الكرونولوجي لمصطلح المقام، والتي نقدّمها كما جاء بها جميل عبد المجيد³³:



بعدما قدّمنا مفهوم المقام عند العرب، نعرّج الآن إلى ما قدّمه بيرلمان من تصوّر لهذا المصطلح، إذ اعتبره أحد أهمّ التقنيات، التي يقوم عليها الخطاب الحجاجي، والذي أساسه البلاغة التي تتعلّق بشروط أساسية كأن يحصل التفاعل بين المخاطب والجمهور. وفي هذا الشأن تحدّث علي شعبان في كتابه "الحجاج بين المنوال والمثال"، فصرّح بأن: "الحجاج ليس استدلالاً تحليلياً يدور في حقل البرهان المنطقي المحض وخارج كلّ اندراج للذات بل يطلب أمراً آخرًا معاكسًا تمامًا وهو وجود العلاقة التفاعلية بين الباث والمستقبل"³⁴.

يمكن القول إذن إنّ الخطاب البلاغي الحجاجي عند بيرلمان يقوم على أساس التفاعل، الذي يحدث بين المخاطب والمتلقي، من جهة. ومن جهة أخرى، باعتباره البؤرة التي تلتقي فيها جميع التقنيات الحجاجية، التي قدّمها بيرلمان، والتي لها علاقة بالبرهان وقرائن بلاغية (الكناية، الشّاهد...)، وحقائق علمية، وقد أشرنا إليها آنفاً.

وعلاقة هذه التقنيات بطبقات المتلقي باعتبار أنّ تلك التقنيات أُسّ حجاجية ينطلق منها المخاطب لإرساء خطابه الحجاجي بمراعاة صيغ المقام المختلفة. والمخاطب عليه التّركيز في كيفية ترتيب هذه التقنيات بطريقة تجعله يستوفي شروط المقام، لكي لا يشكّ المتلقي في صدقه، هذا من ناحية، وفي صدق تلك التقنيات المرجعية، التي تستمدّ قيمتها الحجاجية من

طريقة ترتيبها داخل الخطاب الحجاجي من ناحية أخرى. ولكي ينجح المخاطب في ذلك يجب أن يحدث صراعا جدليًا مع أحداث أخرى كانت في ذهنه، إلا أنه لم يذكرها في خطابه لأجل "خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها، وذلك لتصير فعلا هي الملائمة للمقام"³⁵. كما فصل بيرلمان في مسألة المقام، بتقديمه تصوّرين أساسين له، كما أشار إليها محمد سالم الطلبة³⁶:

1- يعتبر المقام الإطار المحدّد للخطاب، المستوعب لكلّ محتويات العملية الإبداعية، ولكلّ المشاركين.

2- يتجلى المقام أيضا في تلك المقدمات من نظام عامّ، تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم.

إنّ هذا التّصوّر الأخير، تصوّر تجريدي، أساسه المجاز والتّضمين، لذا يمكن اعتباره قيمة بلاغية ذات وظائف أسلوبية مساهمة في خلق الانسجام التّام بين الشّكل والمحتوى. وبهذا الشّكل البلاغي التّداولي للمقام الذي سبّبه تحوّل الطّرح، الذي قدّمه بيرلمان للبلاغة بحيث غيّر مفهومها الكلاسيكي، وساهم في بلورة اتّجاهات أخرى كالتّداولية المقامية. وهو مفهوم ينظر إلى الظروف الاجتماعية، والمذهبية، العقائدية، والحضارية، ومختلف السياقات المحيطة بعملية التّواصل (قراءة/كتابة-سماعا/رؤية)³⁷، كما أشار إلى ذلك محمد سالم الطلبة. واستثمار المدونة الحوارية، سيُحيلنا إلى تحديدات المستوى الحواري في البعد التّداولي للخطاب الحجاجي، الذي قدّمته فرانسواز أرمينكو في قولها: "تعدّ الحوارية مكوّنا لكلّ كلام، وتعرف كتوزيع لكلّ خطاب إلى لحظتين تولّدان علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحواري من خلال الحدود التالية: كلّ تلفّظ يوضع في مجتمع معيّن لابدّ أن ينتج بطريقة ثنائية، تتنوّع بين المتلفّظين، الذين يمارسون الإصانة وثنائية العرض"³⁸.

إنّ مفهوم المقام في هذا التعريف جليّ، فالمتلفّظون يراعون فيه تنوّع المتلقّين وبالتالي تنوّع المتلفّظين، كما أنّ الحوار مبدأ كل خطاب بصفة مطلقة، وبما أنّ كل خطاب مرتبط بالحجاج، فإنّ هذا الأخير هو الأبرز في الحوار والمهمّ فيه. فنخلص إلى القول أنّ المقام ركيزة يتأسّس عليها الخطاب الحجاجي، وهو الذي يتضمّن نجاح العملية التّواصلية الإقناعية.

يمكن القول أنّ هذه القراءة، التي أعادتنا إلى مصنّف الحجاج لبيرلمان وتيكا وما تمخّض عنها من مفاهيم أخرى للحجاج، سمحت بالنّظر إلى اللغة البشرية من زاوية تستثمر فيها كلّ جوانب الممارسة اللغوية من تراكيب، ومعاني، ولغة، ونواح ذهنية، من أجل السيطرة على عقول الآخرين بعد السيطرة على قلوبهم، وإن كانت تستهدف الإقناع الذّهني لأنّه الوسيلة الأمثل لجعل الآخرين يتصرّفون، فذلك يُعزى إلى ما للإنسان من قدرات على التأثير والتّحريض والسيطرة. لقد أحالتنا القراءة أيضا إلى أنّ الظاهرة الحجاجية طالت الأدب بشقيه النثري

والشعري، رغم الآراء التي ذهبت إلى نفي ذلك لأسباب متعدّدة مرتبطة أكثر الارتباط بالجانب الجمالي المهيمن على مثل هذه الخطابات وما يرتبط بهما من بلاغة أكثر من غيرها.

لسنا ندعي أنّنا قدّمنا شيئاً جديداً، ولكن أردنا أن ننوّه بالمنحى، الذي اتّخذ مصنّف في الحجاج ودوره في خلق آراء نقدية أسهمت في تطوير الظاهرة الحجاجية بمفاهيم مختلفة تستهدف النّظر إلى اللغة العربية على أساس التجديد المنهجي، الذي يدخل اللغة في مصاف اللغات العلمية القابلة للدراسة وفق آليات وأدوات حديثة.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 - عبد الله صولة، أهمّ نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حتّادي صمّود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلّية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية-تونس1، كلية الآداب، مَنوبة ص298.
- 2- المرجع نفسه، ص298.
- 3- المرجع نفسه، ص 299.
- 4- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، مصر، 2000، ص 07.
- 5 - عبد الله صولة، الحجاج وأطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة، منشورات جامعة منوبة، ص299.
- 6 - المرجع نفسه، ص300.
- 7 - المرجع نفسه، ص301.
- 8 - المرجع نفسه، ص301.
- 9- المرجع السابق، ص301.
- 10- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، عالم المعرفة، ع164، أغسطس، 1992، ص65.
- 11 - محمّد سالم ولد محمّد الأمين الطلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، ع2، يناير/مارس، 2000، ص61.
- 12- المرجع نفسه، ص61.
- 13 - فريق بحث في البلاغة والحجاج، أهمّ نظريات الحجاج، ص302-307.
- 14 - عبد الله صولة، الحجاج وأطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج، الخطابة الجديدة، ص308-311.
- 15-P.Breton, G.Gauthier, Histoire des théories de l'argumentation, Paris, Edition La Découverte et Cyros, 2000, P41-53.
- نقلا عن: مقدّمات في الحجاج والنّص، عمر بلخير، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، 2011، ص13.
- 16 - عبد الله صولة، الحجاج وأطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج، الخطابة الجديدة، ص332-343.
- 17 -عمر بلخير، مقدّمات في الحجاج والنّص، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، تيزي وزو 2011، ص17.
- 18 - المرجع نفسه، ص17.
- 19-عبد السّلام عشيّر، عندما نتواصل نغيّر، إفريقيا الشّرق، ط1، المغرب، 2006، ص128.

- 20 - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998، ص265.
- 21 - المرجع نفسه، ص266.
- 22 - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص231.
- 23 - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص133.
- 24 - حبيب أعراب، الاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع1، الكويت، ص108.
- 25 - المرجع نفسه، ص109.
- 26 - حبيب أعراب، الاستدلال الحجاجي، ص115-116.
- 27 - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم: من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه، ص49.
- 28 - حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشارقة، تونس، 1996، ص347.
- 29 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص43-44.
- 30 - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، عي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، ج1، بيروت، د.ت، ص135.
- 31 - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1987، ص168.
- 32 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1990، ع164، ص25.
- 33 - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2000، ص131-132.
- 34 - على شعبان، الحجاج بين المنوال والمثال: نظرة في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري، مسكلياتي للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2008، ص16.
- 35 - محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص83.
- 36 - المرجع نفسه، ص91.
- 37 - المرجع نفسه، ص91.
- 38 - فرونسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش: مركز الإنماء القومي، 1986، ص64.